بقلم: د. عبدالقدوس أبو صالح

عندما أسمع من أحد الطلاب أنه (معقد) من إحدى المواد الدراسية فإني أصدقه دون مناقشة، ذلك أني كنت معقدًا من عدة مواد دراسية، أولها مادة الخط، التي لا أشك أنها موهبة من الله، ولكنها ليست موهبة وراثية، فقد كان والدي رحمه الله يكتب بخط جميل، وكذلك أحد إخوتي الذين يكبرونني في السن، أما الإخوة الباقون فهم بَيْنَ بَيْنَ، إلا أنني خُصصت بخط رديء، لا أقول: إن الناس يعجزون أحيانًا عن قراءته، بل أقول صادقًا: ربما عجزت عن قراءته بنفسي، ولا يظن القارئ أني أبالغ في ذلك. فالشواهد على ما أقول كثيرة، والإحراج الذي أعانيه أحيانًا بسبب رداءة الخط يتكرر في عدد من المناسبات.

ومن أسباب ذلك دون ريب أني «معقد» من مادة الخط، ويعود هذا «التعقيد» إلى فقدان الموهبة أولاً وإلى معلم مادة الخط ثانيًا.

وكان ذلك من السنة الثانية في المرحلة الابتدائية، وكان معلم الخط «ظالمًا» بكل معنى الكلمة، وقد كتبت عنه قصة بعنوان «نوم الظالم عبادة» وذكرت اسمه الأول لما فيه من تناقض مع ظلمه إذ كان اسمه «رأفت»، وكان الأجدى أن يسمى «ظلمَتْ». وقد شاء الله أن تقع المجلة في يده، وعرف أنه المقصود فيما كتبت، فشكاني إلى والدي قائلاً: «هل هذا جزاء تربيتي لابنك؟»، ولو أنصف لقال: «هذا جزاء ظلمي لابنك».

أما سبب «العقدة» التي كانت على يد المعلم «رأفت أفندي» فيعود إلى أنه كان في آخر درس الخط يكتب لنا على السبورة سطرًا بخطه الجميل، ويطلب إلينا بما يسمى الواجب المنزلي أن نكتب هذا السطر في صفحة كاملة من دفتر الخط ليطلع على ما كتبناه في اليوم التالي.

وكنت أستثقل كتابة السطر من أوله إلى آخره نحوًا من خمسة وعشرين سطرًا هي أسطر الصفحة الكاملة، وسول لي أحد الطلاب في الفصل أن أعمد إلى طريقة أختصر بها الوقت، ويقلّ بها الجهد، وكانت هذه الطريقة تسمى بالتنزيل، وهي تغني عن إعادة كتابة السطر المطلوب من أوله إلى آخره دفعة كاملة، وإنما تقوم على كتابة الكلمة الأولى من السطر، ثم تعاد هذه الكلمة في السطور التالية من أول الصفحة إلى آخرها، ثم نأخذ الكلمة الثانية فالثالثة وهكذا دواليك حتى ننتهي من هذا الواجب الثقيل الذي كان يأخذ من وقت اللهو واللعب، أو يؤخرني عن موعد النوم في الليل، وكان هذا كله يدفعني إلى الإسراع في إنهاء الواجب ويزيد في رداءة خطي إذ أكتب متسرعًا لإدراك مزيد من وقت اللهو واللعب، أو لأني أكتب وأنا أغالب النوم وأدافعه.

وجاء موعد درس الخط، وقدمت دفتري للمعلم «رأفت» وأنا أرتجف من الخوف، وما إن وقعت عيناه على الصفحة المكتوبة بطريقة التنزيل مضافًا إلى ذلك رداءة الخط حتى تطاير الشرر من عينيه، وصرخ بصوت جعل الطلاب كلهم يرتجفون خائفين: «وَلَكْ إيشْ ها الخط (المفَشْكَلْ) وأيضًا كاتب (تنزيل).. مالك غير صفر مكعب، و(فلقة) على كَيْفَكْ» وسرعان ما نفذ «رأفت أفندي» وعيده ونادى على اثنين من الفراشين العتاة، وشُدّت قدماي إلى حبل الفلقة، وكانت (فلقة) لم أذق مثلها ولاغيرها في حياتي، وكانت سبب (عقدة الخط)ورداءته، مما سبب لي مواقف محرجة وطريفة في بعض الأحيان.

ومن هذه المواقف المحرجة والطريفة أني كنت في امتحان الأدب العربي في السنة الثالثة من كلية الآداب في الجامعة السورية آنذاك، وكان أستاذنا الدكتور شكري فيصل، رحمه الله، وقد قرر علينا في مادة «الشخصية الأدبية» دراسة حياة بشار بن برد وشعره، واستغرق ذلك عامًا كاملاً، ثم جاء السؤال العجيب في الامتحان شاملاً المقرر كله تقريبًا، إذ كان نص السؤال «اكتب ما تعرف عن حياة بشار وأثرها في أغراضه وخصائصه الفنية».

ومضيت مع الطلاب نسابق زمن الامتحان المحدد، ومر أستاذنا بجانبي وألقى نظرة على ما أكتب، وبعد قليل من التأمل قال: كيف أستطيع أن أقرأ هذه الطلاسم التي تكتبها» وأجبته فورًا: والله يا أستاذ هذه الطلاسم نتيجة طول السؤال التي فرضت عليّ السرعة في الكتابة مما جعل خطي الرديء أصلاً ينقلب إلى ما تسميه طلاسم».. وما هي إلا أن قال الأستاذ بعد أن استرجع وحوقل: «سلم ورقة الامتحان، وقابلني في غرفة القسم»، ونفذت ما طلبه مني الأستاذ وأنا أفكر ماذا عساه يقول في القسم، وإذا كان سوف يعاتبني على رداءة خطي فهذا لن يقدم ولن يؤخر.

وما إن دخلت غرفة القسم حتى أعطاني الأستاذ ورقة الإجابة التي كتبتها، وطلب مني أن أقرأ ما كتبت، وكان يضحك عندما يراني أتوقف عند قراءة بعض الألفاظ التي استغلقت عليّ، ولما انتهيت من القراءة قال بكل عفوية: «سوف أثبت لك الآن الدرجة التي تستحقها محسومًا منها عشر درجات تقديرًا لجمال خطك!!».

وبعد ما كتب الله لي التخرج من الجامعة، وبدأت التدريس في المرحلة الثانوية عُهد إليّ بفصل كان فيه طالب جزائري. وما هي إلا أسابيع معدودة حتى طلبت من الطلاب أن يكتبوا «واجبًا منزليًا» عن أحد الشعراء الذين درستهم إياه، وكنت بعد تصحيح كل واجب منزلي لأحد الطلاب أضع في آخر ورقة الدرجةَ التي يستحقها مع بعض الملاحظات الموجزة التي تظهر إيجابيات واجبه المنزلية وسلبياته.

ولما وزعت تلك الواجبات على الطلاب طلبت منهم أن يقرؤوا ملحوظات بكل تمعن مع استعداده لمناقشة من يعترض أو لا يفهم بعض الملحوظات.

وما هي إلا دقائق حتى جاءني الطالب الجزائري قائلاً: يا أستاذ هذه الملحوظة الأخيرة لم أستطع قراءتها، فهل تتكرم بقراءتها لي حتى أفيد منها، وأخذت الورقة من يده بكل عفوية وقد علت شفتي ابتسامة لا تخلو من معنى أنه طالب جزائري ولا يعرف قواعد الخط المشرقي، ولكن الذي حدث أني تمعنت في الملحوظة ولم أستطع قراءتها، ومضيت أمام الطالب أقلب فيها النظر دون جدوى، وطال الأمر حتى إذا ما داخلني اليأس ألهمني الله قراءة الملحوظة وهي تقول: «أرجو أن تكتب بخط مقروء إن لم تستطع أن تكتب بخط جيد».

وما إن أنهيت قراءة العبارة وأنا أستشعر فرصة الفوز بفكّها حتى استشاط الطالب غضبًا وثارت في عروقه الدماء الجزائرية الحارة، وانفجر قائلاً بصوت سمعه كل طلاب الفصل ودون مراعاة لاحترام الأستاذ وهيبة المكان: «بل أنت يا حضرة الأستاذ يحسن أن تتعلم كتابة الخط قبل أن تتصدى للتدريس، ولعلك تعرف قول الشاعر: إذا كان رب البيت بالطبل ضاربًا...»

وشعرت بالإحراج أمام الطالب، ولم أثر لما وجهه لي من عبارات العتب واللوم، بل قلت له أمام الطلاب جميعًا: «أنت محق يا بني ولكنها عقدة «الخط» والله يغفر لمن كان السبب في هذه العقدة!. ■